عبد الكريم غلاب

نشوز

2024

نشـوز...

- 1 -

- يا أمي... سر بيني وبينك، وتنقلينه لوالدي

- هيفاء... تعرفينني وتعرفين والدك. لا أخفي عنه من شؤون العائلة شيئا، أنت في مشكل يا بنتي. لا يصح، ولا يجوز أن أتركك وحدك تعانين المشكلة.

- ولكنه خصوصي لا يصح ولا يجوز أيضا أن تتعرف عليه الأم والأب، ثم - وهذا مهم - لا يقبل عتيق مني أن أكشف أسرار مخدعه.

- ولو لأمك؟

- فأحرى لأبي. لو علم لتطورت العلاقة بيننا إلى وضعية قد تكون سيئة، ثم، وما نتيجة أن يكون والدي على علم قد يزعجه بقدر ما أزعجني وأزعجك؟

- لم إذن أسررت إلي بالذي تشتكين منه.

وفكرت هيفاء طويلا، بدا عليها أنها مسلوبة الرأي في انزعاج قبل أن تجيب :

أفضيت إليك - ويمكن أن أقول إني تسرعت - لأنك أمي...

- الأم «حمار الدباز» توضع على عاتقها مشاكل الأبناء والبنات.

- لا... ولكن لأني لا أحتمل مأساتي وحدي. لا أبيح لنفسي أن أدلي إلى صديقة، وما لي صديق يجوز أن أفضي إليه بأسرار بيتي... ولا لأخي، وأنت تعرفين أنهم ثلاثهم، لا يهتمون بقضايا المنزل، فكيف بأسرار أخت، لم تعد لها مكانة في نفوسهم منذ ودعوها إلى منزل الزوجية.

- لكل غدره، يا هيفاء، أشغال كل منهم مرهقة، ولكل منهم مسؤوليته الزوجية والعائلية، المدرسة والرعاية، ومطالب الأولاد.. ألا ترين أن الشيب بدأ يزور رأس عاصم. وكان المفروض أن يبدأ برأس سليم، فهو أكبر منه بثلاث سنوات.

- لعل عاصم هو الذي جلب الشيب إلى رأسه. يهتم بالصغيرة قبل الكبيرة، يعني بالجزئيات. لا يرقد له جفن إلا إذا اطمأن على المشكلة التي قد يصطنعها. سليم ووهيب لا يأبهان لأي مشكلة. قال لي سليم مرة إن المشكلة تحمل في طياتها حلولا لها، لا حلا واحدا. لم أمنحها من فكري ما أنا في حاجة إلى أن أوظفه في قضية منتجة، لا مشكلة فيها. (أضافت هيفاء) عقليات مختلفة، ويبدو لي أن تخصص كل منهم التعليمي له أثره في تكوين شخصيته.

- أنا..؟ أنا سليم

- قال لي وهو يؤكد شخصيته الفردانية

فكر هيفاء يتحرك :

أخت لثلاثة إخوة لكل منهم كيانه النفسي وطبعه وعقليته، تملي وتتحكم في تصرفاته وسلوكه. من هو أكثر نجاحا في الحياة بكل تكاليفها المادية والعقلية والعصبية والمستقبلية، يبدو لي أنك سليمة الطبع والنفس والفكر. كثير من القضايا المدمرة، أحيانا، أتعامل معها بأعصاب باردة لو كنت أخت عاصم - بكل أبعاد الأخوة - لكنت اليوم مع أمي في المنزل، أو أبحث عن منزل لمطلقة، ولكانت ابنتي، مروى مشردة، لا منزل يؤويها، ولو كان منزلي. أطفال المطلقات مأواهم الشارع، ولو كان لهم أب وأم.

عاد بها الفكر الواعي المتحرك إلى واقع جلستها مع أمها :

غم على الأم «عائشة» وهي تتابع ما اعتبرته هيفاء تحليلا لشخصية إخوتها، قالت وفكرها مشغول بما وضعته فيه هيفاء من مشكل لا تجد بين يديها حلا له. طافت بفكرها سحابة سوداء، لم يجل غيمها علم الوالد محمود بالذي حدث. لم يزد وقد طاف به طائف من التوقع والخوف على مستقبل ابنته أن منح للمشكل اسمه القرآني. ثم جلس وحده يفكر في حزن اكتسى

محياه وهو يردد بين شفتيه ما اعتبرته زوجته آية قرآنية. قالت لهيفاء - وما سمعت ما كان يقرأ :

- كان يقرأ في صمت آية الكرسي...

انطوت هيفاء على نفسها تجتر في صمت مشكلها، يعمق ندمها أنها أفضت إلى أمها بما كان يحسن أن تطوي عليه كشحها، فهي قضيتها. فكرت :

- كل زوجة لها مشكلها. كل زوج...؟ قد يكون هي - هو يتحملان مسؤولية ما يعانيان في صمت، أو في ضجة تتشقق لها جدران المنزل، أو تصل صيحتها لآذان الجيران - الأقربين والأبعدين - إلى أن تصل إلى القاضي... أرعبتها كلمة القاضي، لا تدري كيف طرقت باب فكرها المغلق.

- مشاكل الأزواج أصبحت طريقها مفتوحة نحو دار القضاء...

قالت همسة من فكرها. أضافت :

- ألسنا في عهد مدونة الأسرة، لم يعد الرجل وحده يتحكم في الزوجة. أصبح لها الحكم دونه، وما تزال تطالب. كبر عليها موج الأفكار المتلاطمة. ذلك ما دفعها أن تخبر أمها. تظن أنها ستدفن سرا في بئر عميق الغور، أو ستجد نبراسا يضئ لها المسيرة. «من يسبقك بليلة، يسبقك بحيلة» والأم هي مكمن أسرار بناتها، لا أولادها.

خرجت هيفاء من مجترها إلى سؤال كان يلح على فكرها منذ أخبرتها عائشة أنها لا تكتم سرا من أسرار العائلة على أبيها. فاجأت أمها بالسؤال :

- وماذا قال أبي...؟

- أبوك ركبه هم مما يركب كل أب تعاني ابنته ما تعانين. ظل يقرأ آية الكرسي بين شفتيه. قال لي كلمة، لم أتبينها ولم أذكرها. قال ذاك شيء اسمه : النتوء...؟ السهوم...؟ اللغوب...؟ لا أكتمك القول، لم أتبين الكلمة، وخشيت أن ألح

عليه في تكرارها حتى أحفظها. كان في وضع قلق... تعرفين أني لا أضيف همومي إلى قلقه أو حزنه حينما يكون قلقا أو حزينا.

رددت هيفاء في ذهنها الكلمات الموازية علها تهتدي إلى الكلمة التي وضعها الوالد في أذن الأم. لم تهتد إلا إلى طريق الضلال :

قد تكون كلمة نابية - من المؤكد أنها نابية - قد تكون كلمة فرنسية لم تدرك أمي مضمونها. قد تكون كلمة تؤكد مرضا، أو عيبا جسميا أو جنسيا... قد تكون... واتسعت طرق الضلال أمام ناظريها، وعائشة تبدو على وجهها إشراقة كأنما وجدت طريقها لحل الأزمة. تطلعت هيفاء إلى الوجه الذي تغيرت ملامحه في انتظار الذي يأتي :

- خلاص يا هيفاء. طاحت وصبناها

توقف الصوت الذي طفح بالأمل كأنما تسمح لنفسها فرصة لمزيد من التفكير، وكأنما تمنح إبنتها فرصة لمزيد من الأمل. أضافت بعد لأي :

- الفقيه... (تساؤل طاف بملامح هيفاء) الفقيه يا بنتي يحل كل هذه المشاكل. في أيامنا، في شبابنا كان الفقيه هو طبيب الرجال والنساء على السواء، أيتما امرأة وقعت في مشكلة مثل مشكلتك لا تلجأ إلى طبيب، ولا تقيم زوبعة في منزلها تؤدي - لا قدر الله إلى الطلاق. الطلاق كان في مجتمعنا لا يدخل البيوت الكريمة المحترمة (أرتج كيان هيفاء وكلمة «الطلاق» تتردد على لسان أمها) الفقيه يعرف كيف يريح كل زوجة من متاعبها - يا ما أكثر متاعب الزوجات منذ بداية حياتهن الزوجية.

- الفقيه؟ وماذا يفعل الفقيه؟ أهو طبيب أو قارئ...؟

- أفهميني يا ابنتي. لا أكتمك أني أنا نفسي، جربت الفقيه. ولو لم ينقذني لما كان لكم - كل أبنائي - وجود في الدنيا. كل الرجال لهم مشاكل، إن لم تكن مثل مشكلتك فهي أفدح وأخطر. ربنا أكرمك. زوجك رجل متعلم وأخلاقه سامية، لا يتسقط على أخريات. ولكن مشكلتك قد تكون سهلة يسيرة قد لا تزيد على حجاب يحمل أسماء الله الحسنى وآياته يحمله الروح أو ماء «مكتوب» يشربه، أو بخور يضمخ بدخانه ثيابه أو جسمه.

فغرت هيفاء فاها. جسمها يرتعش. عجزت شفتاها أن تتحرك بكلمة كانت - وهي طفلة غرة - تسمع شيئا من هذا الذي تتحدث به والدتها. كان في وعيها كقصص الجدات يغري بالاستماع، يبعث على العجب والإعجاب. يفتح أمام خيال الطفولة بوابة تصور المعجزات.

- لا... لا... يا أمي. زوجي رجل متعلم، لا يؤمن بالسحر، ولا بحجاب الفقيه..

- لن يعرف ذلك، والدك (ازدادت هيفاء استغرابا واستنكارا) علقت الحجاب بين قميصه وبذلته حجابا، كان بردا وسلاما على نفسه. تغير الرجل، أصبح كما تعرفين. أنت لم تعرفي والدك في بداية حياتنا. كنا على وشك (أجهضت الكلمة) حجاب الله كتبه لي فقيه. ما يزال على قيد الحياة... أزوره كلما احتجت إليه في سرية من أبيك غير من طبع والدك، كما تعرفين، أصبحت حياتنا سهلة مريحة.

- لا... لا... يا لأمي. بيني وبين الفقيه حجاب.

- هذا ما قلت «حجاب» يدرأ عنك ما تعاني من عذاب.

- افهميني يا أمي. لا أومن بحجاب الفقيه، ولا بما يكتبه السحارون. إذا لم تقتنعي فتأكدي أن زوجي لو اكتشف شيئا من هذا لما بت في عصمته.

- يمكن أن تضعيه داخل الفراش الذي ينام عليه.

- أمي... ابعدي عن فكرك كل هذه الترهات. لا أنا ولا هو نقبل أن نعالج مشكلتنا بالتعاويذ والخرافات.

فجأة قامت من مقعدها، وضعت حمالة حقيبتها على كتفها قبلت خد والدتها مودعة :

- أرجوك يا أمي ابعدي بفكرك وعملك عن هذا الموضوع، أخطأت حينما أخبرتك. أخطأت حينما تحدثت إلى والدي بما هو سر من أسرار فراشي، أخطأت، أنا المسؤولة.

غادرت منزل عائلتها محزونة مكلومة.

- 2 -

في منزل سمراء كان الأربعة على موعدهن الأسبوعي. صديقات جمعت بينهن المدرسة والجامعة وحب الحياة... ورقاء بادرت بالاقتراح، فكان منزل كل منهن يستضيف الثلاثة كل أربعاء... تخرجن في سنة واحدة... وإن اختلفت مشاربهن الجامعية : ورقاء طبيبة أسنان. سمراء محامية. هيفاء أستاذة. لمياء موظفة في وزارة المالية. رحب أزواجهن بهذه الاجتماعات. هن متعلمات مختلفات في مشاربهن العلمية، سعيدات في زواجهن وحياتهن العائلية. منهن من اقتحمت طريق تنمية العائلة فأنجبت. بعضهن في طريق الإنجاب.

قال سامي لهيفاء - وهي تخبره بالمبادرة - أرحب بهذه الاجتماعات، أضاف معاتبا : لم هذه الخصوصية ألا تعتقدن في المساواة بين الرجل والمرأة؟ أم أن للنساء أسرار يصعب على الأزواج فهمها؟

عاد إلى طبيعة حديثه الجاد : أنتن صديقات منذ زمن المدرسة، ولا يحفظ استمرار هذه العلاقة غير اجتماعكن في لقاءات منتظمة تؤسسن فيها مشاريع المستقبل.

حديث الأربع الأسبوعي يطرح قضايا المجتمع، حتى طبيبة الأسنان كانت تسهم بالحديث عن زائرات عيادتها من النساء. لكل منهن مشكلتها العائلية والحياتية. وكانت قضايا المرأة - ولو وصل بعضهن لأعلى مناصب الدولة ومراكز الحكومة والبرلمان - ما يزال حديث المجتمع.

- الواجهة لا تخفي خبايا المنازل والشارع، وأكواخ السكن في الحاضرة والبادية على السواء.

قالت المحامية، وهي تستعرض المشاكل التي تصل إلى المحاكم، وتملأ رحاب محكمة الأسرة.

على كأس الشاي رغبت «ورقاء» في أن تغير من رتابة الحديث. سألت سمراء سؤالا غريبا :

- قولي لي يا سمراء : لم سماك أبوك سمراء...؟ سمرتك لافتة، تمنحك لونا متميزا في جماله.

ضحك الصحب لطرافة السؤال، ولأن إحداهن لم تفكر في موضوع كهذا كان حريا أن يثير أجوبة مختلفة، غير أن ورقاء استمرت :

- صدقيني لونك يا سمراء كان جاذبيتي للتعرف عليك أول ما التقينا في المدرسة.

أضافت هيفاء :

- لعله السر في الحب الرومانسي الذي انتهى بالزواج السعيد...

ضحكن جميعا في حبور وهن يستمعن إلى تعليق هيفاء. أجابت سمراء :

- للاسم قصة قصيرة وطريفة: والدي، يوم ولدت - وكنت الثانية من ثلاث جلس مع المهنئين من أفراد العائلة يستعرض أسماء البنات، وانتهى إلى القول :

- سأطلق عليها اسما لم يسمه أحد من آباء البنات... يضيف أبي : وترددت الأسماء من زبيدة وحليمة. فتركتهم جميعا يقترحون، ويجهدون أنفسهم في ابتكار الأسماء وأخيرا طلع عليهم باسم «سمراء»... أصدقن القول : إني معتزة بهذا الاسم.

- (قالت لمياء) معك كامل الحق فهو خفيف وطريف وغير متداول

- الله يرحمه كان يعزني ويدلعني : تعالي يا سمرائي...

لم يكن الحديث عن مشاكل المرأة غريبا عن اجتماعات الأربعاء. «فالمجتمع الثقافي الاجتماعي»، - كما حلا لسامي أن يسميه - كان يستعرض المشاكل الاجتماعية في الوطن، وغير

الوطن، التي تأخذ باهتمام كل منهن ليعرض لها بالتحليل وإبداء الرأي. وكن يجدن في هذه الموضوعات استجابة لطموحاتهن الثقافية. لم تكن القضايا السياسية أو قضايا الانتخابات أو المناقشات البرلمانية أو صراعات الحكومات والمعارضات... تأخذ من اهتماماتهن إلا قليلا. وقضايا المرأة من الأوضاع الاجتماعية في مقدمة ما يهم المجتمع. قالت ورقاء تحكي عن زوجها :

- يكاد المجتمع النسائي يصاب بعقدة نقص - قال - المرأة أخذت طريقها نحو التطور، وبالتالي نحو المساواة مع الرجل متأخرا في أوروبا نفسها، وحتى حق المرأة في العمل السياسي، وفي الانتخاب حصلت عليه في بعض البلاد الأروبية، قبل أقل من أربعة عقود ومنذ التطور الذي عرفه العالم بعد الحرب الثانية وعرفته الشعوب المستضعفة بعد استقلالها قفزت المرأة قفزات واسعة في ممارسة عضويتها الفاعلة في المجتمع بما فيها الحقوق السياسية، سبع نساء وزيرات وعشرات النائبات ومئات المستشارات الجماعيات وآلاف الطبيبات والقاضيات

والمحاميات والمديرات والمقاولات، ذلك ليس بقليل في خمسين سنة من الاستقلال : يضيف سامي - ورقاء تروي عنه - هذا تطور مهم في الزمن الوجيز الذي عاشته المرأة، أهم منه أنها أخذت طريقها بقفزات نادرة. ما أظن أن مجتمعا يمكن أن يقفز بأكثر مما قفزت المرأة. بقي الكثير، المجتمع بكل مكوناته ما يزال متخلفا، يسير بخطوات عرجاء - غير أنه يسير. فلم هذه الضجة الكبرى عن المظالم القاتلة التي تحل بالمرأة؟ أخشى من عقدة الاضطهاد.

أجابت سمراء : كلام يصدر عن عقلية مزدوجة لرجل - اعتذر يا ورقاء - مخضرم. أو أنه يرى بعيون خضراء. عينا زوجك خضراء يا ورقاء؟

انفجرن ضاحكات لسؤال اعتبرته ورقاء طريفا.

- أجمل ما فيه يا سمراء... (يا سلام على الحب هتف صوت من بينهن) وهو واقعي في حياته، ويفكر بهدوء، ولا يستعجل الذي يأتي. لا يعترف بالمستحيل، ولكنه لا ييأس، يؤمن بأن المجتمع

الذي قطع أول ميل سيقطع الألف ميل، ولكنه يكره العويل في الطريق إليها.

- قالت هيفاء : عين الحكمة (أضافت مبتسمة) كنت أتساءل عن مصدر هدوء أعصابك وأملك المستقبلي... صفات اكتسبتها بعد زواجك. ألا تلاحظين ذلك... أأختر الدرس منك يا ورقاء...؟

- أنا أكبر توجهات الأستاذ سامي، وأعتبر - مع ذلك أن عجلة المرأة لتطوي صفحة الماضي، ليست عجلة من الشيطان، إنها نصف المجتمع عددا، ومن حقها أن تخطو معه مثل خطواته. أنا أتحدث عن مجموع المجتمع النسائي ليس مجتمع المدينة، أو مجتمع المدن الجامعية، بل مجتمع القرية، ومجتمع المدن المهمشة. أحكي لكن حكاية : صادفت في مكتبي قضية صاحبتها سيدة تجاوزت الأربعين، كانت معها ابنتها تلبس جيدا، تصفف شعرها بإتقان. بدا لي من حديثها بالنيابة عن أمها أنها تتفجر ذكاء. كلامها منطقي منظم، لبقة في حديثها، ناولتها في آخر جلسة لي مع الأم ورقة مكتوب

عليها تاريخ القضية وعنوان المحكمة ورقم الهاتف فاعتذرت البنت عن قبولها لأنها... لا تقرأ... أصبت بدهشة :

- أنت لا تعرفين القراءة؟ لماذا؟

لأنهم عندنا في الصويرة كانوا يقبلون الصبيان في المدرسة، ولا يقبلون البنات.

وسواء كان التعليل صحيحا أو غير صحيح فهي أمية - من عشرين سنة - وستكون في الستين من القرن الحالي شاهد العصر على أمية جيل ما بعد الخمسين من عمر الاستقلال...

أضافت لمياء : والدي احتاج لسائق سيارة، فلما جاء السائق في سن الأربعين طلب إليه أن ينقله إلى شارع النصر، فأجاب السائق : أسوق سيارتك، وعليك أن تدلني على اسم الشارع. فأنا - حاشاك يا سيدي - لا أعرف أن أقرأ أسماء الشوارع...

أضافت لمياء: هذا بتلك. نحن جزيرة سابحة في بحر الأميين. الأمية مفتاح التخلف، وستظل هذه الجزر تسبح. نرجو ألا تغرقها العواصف.

كانت ورقاء تستمع في وعي. بدا أنها تفكر في توأدة: نطقت :

- أتساءل عن مهمة المجتمع الثقافي الاجتماعي، وقد استعرض هذا الواقع الذي لا أصفه حتى لا أضع نفسي في عداد النائحات... أعتقد أننا مدعوات أن نغادر مرحلة الملاحظة والتتبع والحكاية. مسؤوليتنا تطالبنا بتطبيق المثل: الناجي يأخذ بيد أخيه. مسؤولية الخروج بالمجتمع من وضعية التخلف ليست مسؤولية الحكومة وحدها. من الأنانية المقيتة أن يشغل الواعون من مجتمعنا أنفسهم بقضاياهم، ويغفلون عن قضايا الآخرين. اعتبر نفسي متخلفة إذا كان جاري متخلفا. النسر لا يطير بجناح واحد. كلنا مسؤولون. الحكومة يمكن أن تكون منسقة لنشاط المجتمع المدني في مقاومة وسائل التخلف. أنا غير متشائمة، زوجي متفائل، ولكنه وأنا لا نرمي باللائمة على الحكومة. ثم نقول : إنها غير صالحة.. كلنا - المجتمع - غير صالحين. نحن أربع نساء «المجمع الثقافي الاجتماعي» يجب في نظري أن يضرب المثل ليكون مجتمعا ثقافيا اجتماعيا حقيقة.

علينا أن نخطط لعمل جديد. في اجتماعنا نستفيد من بعضنا. نبحث قضايا، نعلق عليها. وينتهي اجتماعنا بفائدة شخصية. اقترح أن تفكر كل منا في التخلي عن الأنانية لنكون لغيرنا، وليس لنا. أنانيتنا تحققها كل منا في بيتها، مع أزواجنا. تلك أنانية محمودة، ولكن نعيش في مجتمع قد يختلف عنا. ينبغي أن نتخلى عن الأنانية المقيتة. نحن خلية من المجتمع، أليس من حق المجتمع على خليته أن تفكر وتعمل وتناضل لصالحه؟

اقترح المبادرة، الفكرة. لا أسمح لنفسي أن أستبد بوضع مخطط عمل. اقترح عليكم أخواتي أن تخصص جلسة للتفكير، وأخرى للتنظيم، نعلن فيهما الحرب على أنانيتنا، لنعمل للآخرين اجتماعاتنا حافلة بالقضايا، لا بالأمثلة. إذا فتح «مجمعا» الطريق، فسيطوي المجتمع مراحل. وتكون شاهدة العصر، بعد نصف قرن، شاهدة على عصر مضى، لا على واقع معيش.

- 3 -

ورقاء كانت متحمسة لأن يهتم المجتمع بالجديد من القول والقيام بعمل إيجابي مساهمة في إنقاذ المجتمع من التخلف. في منزلها كان الاجتماع الذي افتتحته هيفاء بالحديث وكأنها حضرت وفي حقيبتها مشكلة تود أن يساهم «المجمع» في حلها. وضعت كأس الشاي بجانبها وبدأت الحديث :

اعترضتني أم لفتاة اعتبرها من أذكى فتيات القسم، قالت الأم وهي تحمل هم الدنيا وتعتقد أني كأستاذة أستطيع أن أساعد على حلها أو أقدم لها فتوى تمهد لها طريق الحل.

سمراء بطبيعة عملها تهتبل القضايا والمشاكل. لا تستمع وتمشي، ولكنها - كمحامية - تبحث في عمق المشكلة، ولو لم تعرض عليها معالجتها أمام محكمة.

- كل القضايا لها حلول، ولكن لصالح من المدعى والمدعى عليه. تلك هي القضية.

قالت هيفاء ضاحكة في تودد: لم تصل القضية بعد إلى محكمة - وآمل ألا تصل - فالسيدة المستفتية امرأة فاضلة ترغب في الحل السلمي لقضية ابنتها. لها شابة متزوجة بشاب في مستوى ابنتها تعليما وسنا وخلقا، بدأ الزوجان حياتهما سعيدين، وما يزالان - تقول السيدة. وقد أنجبا بنتا. ولكن الزوج الشاب أخذ ينفر من زوجته عند الفراش. يعزف عنها، وهي شابة في مقتبل العمر. حاولت معه بكل ظروف الإغراء، غير أنه نافر. والأم تحمل هم ابنتها. كانت تبكي وهي تحكي. وسألتها :

- أله خليلة؟ أعاجز جنسيا؟ ما طبيعة علاقتهما العائلية؟ بالزوجة مرض جنسي أو جسمي؟

كانت المرأة تجيب بمنتهى الوضوح والإقناع لصالح العلاقة الطيبة بين الزوجين أضافت، ولكنه نفور دون كراهية ولا سبب واضح.

تقبلت التفكير معها في حل مشكلة ابنتها على أساس أنها مشكلة اجتماعية، مع الاعتذار لدموعها بأني لست طبيبة ولا قاضية ولا محامية.

استوعبت سمراء المشكلة كما لو كانت قضية عرضت على مكتبها وتستعد للمرافعة.

- هيفاء : المشكلة ليست مشكلة لا تنفرد بها هاته الشابة، أتعرفين الاسم العلمي - أو الفقهي - لهذا الذي حصل بين الزوجين.

- لا... ولكني سألت المرأة المستفتية فذكرت لي كلمات غير مبينة. لم اسمع قط بحالة كهذه.

- في كلية الحقوق تعرض أستاذ الشريعة الإسلامية، وهو يدرس معنا باب الزواج. وبفضول جيد من الأستاذ تعرض إلى ما يسمى في القرآن «النشوز».

قاطعت هيفاء بحدة: النشوز...؟ ذكرت الأم كلمات بهذه الصيغة. ولكنها لم تهتد إلى كلمة «النشوز» ولم أهتد أنا. وماذا يعني النشوز في الفقه القرآني؟

ضحكت سمراء وكأنها تلقي درسا على فتيات في الكلية :

- كان أستاذنا في الكلية يعتذر وهو يتحدث إلى عشرات الطلبة نصفهم طالبات : النشوز هو أن تمتنع الزوجة عن زوجها فلا تمكنه من نفسها. أضاف الأستاذ : وهي مشكلة وضع القرآن لها حلا أو ما يشبه الحل حينما قال : «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا...» (استمرت سمراء)، سادت القاعة موجة «همهة» صامتة ووقفت أكثر الفتيات جرأة لتواجه الأستاذ.

- هذا يا أستاذ - مع تقديري لآيات القرآن - ليس حلا لمشكلة، ولكنه عقاب على حالة قد تكون لا إرادية أولها أسباب تبررها.

- كانت جريئة هذه الطالبة

- ولكنها قوبلت بصيحات التأييد والتشجيع... من الطالبات

- تساءلت ورقاء : والطلبة؟ ماذا كان موقفهم.

- بصراحة كانوا يضحكون من أعماقهم.

استمرت ورقاء تنافس :

- ولكننا في عصر آخر. ثم الآية لا تفيد حكما، ولكنها توصية، وإذا كانت هذه التوصية تؤدي إلى فراق بين الزوجين. فإن هناك حكما سمعته مرارا يقول : الطلاق بغيض.

- (صححت سمراء للكلمة) الحديث (يقال إنه حديث) نبوي يقول: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». ولعلي أتفق معك

في القول بأن الآية ليست حكما ملزما. ولكنها وصية قد تكون رادعة للسيدات اللواتي يمتنعن ناشزات عن أزواجهن في رأيي: إذا لم يكن لنشوزهن سبب عضوي أو نفسي، أو اجتماعي.

استمرت سمراء وكأنها معتزة بمعارفها الفقهية :

- القضية لها بعد اجتماعي كبير، وقد يكون خطيرا. فنشوز المرأة قد يؤدي إلى فرار الرجل من زوجته إلى التي قد يجد منها قبولا وترحيبا. عاقبة ذلك أخطر. فالعلاقة بين الزوجين تسوء، وقد تؤدي إلى أبغض الحلال إلى الله. وإذا كان الزوج سيء الطبع، فقد ينتقم من زوجته فيذلها بما يسوءها أن تعرفه أو أن تراه. ولذلك فالشرع أراد أن يقر أخف الضررين في معالجة النشوز، لعل الزوجة تتعظ وبدأت الآية بكلمة فعظوهن علها تلبي حق الزوج عليها، كما ترغب في أن يؤدي حقها عليه.

صفقت لمياء في ابتسام ودي.

- تبارك الله على أستاذتنا الفقهية، كنا نعرفك محامية، غير أنك أضفت إلى علم المرافعة في القانون علم المرافعة في الفقه.

- لا... ليست هذه مرافعة، وإنما هي بقايا مما تعرض له أستاذ الشريعة في دروسه عن الزواج ومشاكله - كان فكره منفتحا إلى حد ما، يقبل المناقشة والاعتراض - ثم إنني حضرت قضية في المحكمة رافع فيها زميل لي، اشتكت فيها الزوجة زوجها لأنها طبق نص الآية القرآنية. المؤسف في القضية أن الزوجة كانت من الجرأة بأن أعلنت للقاضي: أنها تكرهه. وتعرفين نهاية المشكلة : ابغض الحلال إلى الله...

لم تكن سمراء تحلل مشكل النشوز لتعرف أنها تصيب قلب هيفاء بسهام قاتلة، وأنها تزيد من تعقيد مشكلتها كلما ذكرت «أبغض الحلال إلى الله»، وحينما أفضت بنتيجة المرافعة التي أعلنتها المحكمة.

أخذت هيفاء الكلمة وكأنها المقررة في موضوع اجتماعي علمي فقهي معقد.

«لعل الأمر يختلف يا سمراء. تحدثت عن نشوز المرأة وحكمه في القرآن ونتيجة قضية رفعت من أجله إلى المحكمة. قضية

السيدة التي طلبت رأيي فيها تتعلق بنشوز الرجل لا نشوز المرأة، - النساء شقائق الرجال في الأحكام. هذه قاعدة فقهية، ولكن قليلا ما سمعت بنشوز الرجل.

ضاحكة أو لعل الفقهاء يتسترون عن جنسهم، فهم في اغلبهم ذكوريون.

- معنى ذلك : تساءلت لمياء

- (أجابت سمراء) : معنى ذلك أن المرأة يمكن أن تعظ زوجها - إذا كان ناشزا - أو تهجره في مضجعها (استلقت على قفاها من الضحك وهي تضيف) : أو تضربه.

اشتدت الأزمة بهيفاء تصاعد الدم في عروقها. احمرت وجنتاها. لفها دوار كما لو كان بداية إغماء. حاولت أن نتكلم. اضطربت الكلمات بين شفتيها.

- ليتني لم أعرض المشكلة على «المجمع» - قالت لنفسها - ولو في شكل الحكاية عن شابة منكوبة...

لاحظت لمياء ما أصاب هيفاء من اضطراب. اعتراها شك في أن حكايتها عن نشوز الرجل شخصية، هي نفسها الضحية. أشفقت على صديقتها، هي أعز الصديقات إليها، حاولت أن تخفف من ضغط الحدث والحكم الشرعي الذي تحدثت عنه سمراء بجرأة فكر المحامية التي تتبعت بعض قضايا محاكم الأسرة، قالت لمياء :

- كنت أتحدث مع رؤوف زوجي في بعض قضايا الشرع الزجرية. وكان له رأي أقنعني به. قال :

- إن الشرع في كثير من الأحكام يقصد التحذير والردع لتخويف المتجاوزين الحق من الفعل، والشرع يدرأ الحدود بالشبهات، ويتستر في قضية الزنا - رغم أن عقابها شديد في القرآن - باشتراط شروط تكاد تكون مستحيلة، وخاصة دعوى الزوج على زوجته، ويبدو لي أننا يجب أن نفتح أفكارنا على الخير حتى لا نصل إلى المحظور.

أعجبت سمراء بمنافسة لمياء - رواية عن زوجها في فهم بعض الأحكام فقاطعت :

- الدين يسر - وقيل في حديث : ولن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه. ولكن ما الرأي يا لمياء في حكم النشوز.

- سمراء لا أصل إلى مقامك في فهم القضايا الشرعية، ولكن يبدو لي أني لو استشرت زوجي - وله إلمام بكثير من القضايا الإسلامية، وهو جريء في بعض آرائه جرأة أعجب بها بعض زملائه - لأفتى بأن ما نسميه عقاب المرأة الناشزة إنما هو تحذير وتخويف، يراد منه التحذير حتى لا يصل الأمر بالزوجين إلى الطلاق. تقف القضية عند الوعظ والهجران إذا اقتضى الأمر، فلا يصل إلى الأمر إلى الضرب فتكف عن نشوزها لتسوي خلافها مع الزوج بالطاعة.

حاولت ورقاء أن تشارك في موضوع بدا لها أنه بعيد عن ثقافتها. ولكنها لم تلبث أن تشارك فهي في «المجمع» تحب أن تكون حاضرة في كل موضوع تعرض له إحدى الزميلات :

- قالت سمراء : إن النساء شقائق الرجال في الأحكام، ولكن الأمر المعروض ليس حكا، وإنما هو وصية - فيما يبدو لي - بما أن الرجل كلما ينشر (أثارت بكلماتها عاصفة من الضحك) - علقت إحدى الضاحكات: تحكين عن تجربة صادقة...) لا تضحكن، الموضوع علمي. قد يناقش في مجامع علمية ليس فقهية فحسب. القضية نفسية واجتماعية، وقد تنتج عن علاقة إنسانية، وقد يتعلق الأمر بعارض مرضي... من كل هذه الزوايا استمر القول، إن قضية نشوز الرجل لم تعرض، والمفروض في النشوز - كما يبدو من تحليلات سمراء أنه حينما يكون قضية عناد، وشادة بين الرجل والمرأة، تتخذ فيها المرأة هذا الأسلوب لإغاظة أما إذا كان الأمر غير ذلك، سواء عند المرأة أو عند الرجل فإنه يدخل في باب مرض نفسي أو عضوي قد يعالج عند طبيب نفسي أو عضوي، ولا يصل الأمر بالمتضرر من الزوجين أن يلجأ إلى الآية الكريمة.

أضافت سمراء معقبة :

- مرحى ورقاء : تحليلك في غاية الروعة، اسمحي لي أن أكمل حملتك بالقول: إن اللجوء إلى العلاج لا إلى الردع أو ما سمي عقابا سيحمي الزوجين من أن يصلا إلى أبغض الحلال...

صهري عن هيفاء بهذه الأحاديث المتعقلة المتفائلة. تخلصت من الاضطرابات الذي اعتراها انتشرت شفتيها ابتسامة. بدأت تفكر بنفس منفتحة غير مأزومة. قالت :

- لقد أوقعتني السيرة التي تصدقني في المدرسة، وهي تظن أن الأستاذة يمكنها أن تحل كل المشاكل حتى مشكلة ابنتها الشابة مع زوجها - أوقعني في حيرة، كنت موفقة حينما عرضتها على المجمع. ولعل كل ما تحدثن به من معلومات ونظريات يساهم في حل مشكلة اجتماعية. أعتقد أن كثيرين وكثيرات من الأزواج يتسترون عليها، ويعالجونها بانفعال عاطفي أو نفسي أو جسدي، وينتهي الأمر بهم إلى فراق. ولو بحثوا - كما فعل عن حلول أخرى لوجدوها، بعيدا عن التوتر والتشبث بالسلطة والعنف، والخروج من فراش الزوجية إلى ميدان الصراع والفراق.

عقبت سمراء :

- لعل مجمعنا عالج مشكلة اجتماعية عائلية يصعب على مجمع الرجال أن يتناولها بأعصاب هادئة، وبحياد مستقيم. وأعتقد أن في الإسلام من التسامح ما يمكن من التفاهم مع آراء الفقهاء بالنظر إلى المصلحة العلية للأسرة، وخاصة إذا كان بين الزوجين أطفال كالحالة التي عرضتها السيدة المستفتية على هيفاء، بين الزوجين بنت صغيرة كما قلت، وقد همني الموضوع. والفضل لك يا هيفاء أن نقلت إلى مجمعنا قضية امرأة تعيش ابنتها في محنة.. يمكن أن تفضي بها إلى هدم عش الزوجية.

- أنا الآن - بعد هذه الأفكار الناضجة - أعتبر نفسي رسولا يحمل رسالة سلام إلى سيدة مكلومة. اتضح الرأي لدي في أن تطفئ الزوجة لوعة الغضب والشعور بالغبن والشك الذي يأكل قلبها إزاء الزوج. ثم تتخذ من التودد والتحبب سبيلها إلى قلب الزوج.. وأن تقنعه، إذا لم تهتد إلى الانتصار على

الأزمة، أن يعرض نفسه على طبيب جسدي أو نفسي، فقد يساعده على تجاوز هدم بيت الزوجية.

علقت لمياء - وغروب الشمس يعلن نهاية الجلسة - رسول أمين أنت يا هيفاء. ولو أنقذت بيتا من الخراب لكانت نعم الرسالة التي شاركنا جميعا في صياغتها.

- 4 -

ينقص المنزل شيء، روعة (ابنتهما) كنت أود أن أوصلها إلى المدرسة قبل خروجي للعمل. اليوم لعله من الأيام المجهدة لك في المدرسة. ارحمي نفسك، أعصابك - قليلا - في القسم. التلميذات في وقت المراهقة يثرن أعصاب من لا أعصاب له... إلى أن تكبر «روعة» وستجدين فيها ما يجعلك تقدرين ظروف تلميذاتك. مرحلة المراهقة مزعجة للمراهقين، قبل أن تكون مزعجة لعائلاتهم وأساتذتهم.

قال محمود، وهو يستعد للانصراف إلى عمله في مؤسسة التنمية المندمجة.

أجابت هيفاء، وقد تناولت معه وجبة الصباح.

يا محمود، أعصابي لم تعد تحتمل، لو كان سهما واحدا لألقيته...

- محمود (ضاحكا) التمثل بالشعر في الصباح يفتح النفس على أزهار الرياض، على شرط أن يكون شعر «الأسهم» لا شعر السهام.

- يا شلام (تلتغ بالشين) على الاشقاق اللغوي... أحب أن تكمل البيت الشعري؟

«ولكنه سهم وثان وثالث...

- يا حفيظ... أية سهام في صباحنا المشرق هذا الجميل. أقول الحق: التشاؤم - ولو بالسهام - لا يتفق مع الوجوه الجميلة (ربت على خدها في تودد) الشفتان الجميلتان (وضع سبابته على شفتيها تنطقان بكلمات الزهور والورود والرياحين. أبعدي عنك كلمة السهام يا هيفاء...

ابتدئي صباحك متطلعة لأشعة ذهبية من شمس الربيع.

ابتسمت في وجهه ابتسامة عذبة، وهي تردد في نفسها :

- لو كان ليلي مزهرا لكان صباحي مشرقا.

صعدت زفرة أليمة وهي تخاطبه بود.

- ستقف ظهرا ساعة للغداء أم عملك اليوم مستمر.

- لا. أعتذر. العمل اليوم مستمر. على مكتبي بضعة ملفات وعلي أن انتهي منها اليوم.

- (ساخرة في ترفع) : لعل التنمية المندمجة ستشع اليوم على كل بشر المغرب، فيصبحون غدهم «ناميين...»!!

- (في لهجة جادة) : اندماج وسائل التنمية مخطط ما يزال يتحسس طريقه في غسق النور. لن يستنير طريقه بغير وعي الشعب.

- ويقظة الحاكمين. وعي الشعب رهين إلى حد كبير بيقظة الحاكمين...

- المسؤولون في حاجة إلى اندماج. وتلك إحدى مشاكلنا الفكرية فى الإدارة التي أعمل فيها.

- مشكلة أخرى هي تنمية الإحساس البشري بين المسؤولين، في أي درجة من درجات المسؤولية. أهذه المشكلة لاتغض مضجعكم في إدارة التنمية المندمجة...؟

- ربما قصر فهمي عن إدراك فلسفتك في لحظة يطاردني الوقت فيها دون رحمة.

- مهما يكن فأنا سأعود ظهرا. دروس اليوم الاثنين تقتصر على الصباح، وسأمر بمدرسة روعة لتأخذ غداءها معي ثم أعيدها إلى المدرسة. يعز علي أن تجوع يا محمود حتى الرابعة عشية.

- لا... لا تنزعجي من أجلي، ظهرا أطلب مع القهوة فطيرة أو هلالية... تعرفين: مواصلة العمل تسقم شهية الأكل.

قالت بين شفتيها دون أن تطرق كلماتها أذنيه :

- السقم عن كل شيء مشكلة الرجال...

- إلى لقاء. (قالها مودعا دون أن يطبع على خذها قبلة الوداع)

لم ترتح لجفاف الوداع كما لم ترتح من قبل، اعتادت هذا الوداع الجاف، والاستقبال أكثر جفافا، مع ذلك لم ترتح قط لغياب الرجولة والأنوثة في لحظة الوداع والاستقبال.

- كم هو قاس متغافل وأنا اقترب منه لحظة وداعه.

قالت لنفسها وهي تناول روعة كأس حليب وتعدها للمدرسة.

- ماما... أين بابا؟ خرج دون أن أقبله. كنت أود أن أفعل قبل أن يغادر...

- أتراه هو فعل قبل أن يغادر

- كنت ما أزال نائمة يا ماما.

- الآباء يقبلون بناتهم وهن نائمات.

فكرت، ويقبلون زوجاتهم وهن نائمات وصاحيات...

كان يومها في المدرسة غير ذي عطاء. كل التلميذات كن مشاغبات. بدت لها «زهور».. وهي تضحك في سرها، أنها تقل أدبها في الدرس، وعلى الأستاذة.

- لا يا زهور : التلميذات المؤدبات لا يضحكن في الدرس.

- لا يا أستاذة أنا مؤدبة، لم أضحك بنية سيئة... لا لست طفلة...

شعرت هيفاء بأنها تدخل في جدل قد يزري بهيبة أستاذة لم يألف تلميذاتها منها غير الاعتزاز بكرامتها. غضت الطرف عن زهور. شعرت بأعصابها تحتد. كان فكرها تائها حرنًا عن التركيز. فكرت أن تعتذر عن الدرس لعارض صحي. وقد تدخل مع المديرة الجديدة المعتزة بمنصبها في نقاش، تعرف أنه غير مؤذ، ولكنها لا تريد... التجأت إلى ما يلتجئ إليه الأساتذة الرجال في كثير من الأحيان : إشغال التلميذات بمراجعة الدرس الماضي وتلخيصه. جلست متبلدة تراقب عمل التلميذات بجسمها، فكرها غائب عن المدرسة، تجتر لياليها وأيامها :

- أين تأخر مساء أول أمس؟ لا. محمود رجل مستقيم... تراه مل الحياة الزوجية. لا. ما يزال يبتسم في وجهي، ينادني عزيزتي... روعة سر قلبه. ما أزال أذكر كلمته المحببة.

- لولاك لما كانت روعة...

... ترى روعة أخذت مكاني من قلبه...؟ يحرق قلبي حينما يدير وجهه إلى الجدار على فراش النوم، يسدل إزاره على وجهه ورأسه كما لو كان في كفن... كفن؟ كلمة غير لائقة... أنفاسه تتصاعد في نوم عميق كأنه معي إلى فراشه نائما.. في سنوات زواجنا الأولى كان يمضي معي ربع الليل في حديث يقظ. لم أعرف النشوز. كان شابا قويا شغوفا في لهفة. يزعجني أحيانا، أتوسل إليه في أدب ودي أن يدعني أنام. يستيقظ أحيانا فيوقظني كنت أضيق بشبقه؟ لا. كنت أجدني سعيدة كل شابة تسعد بمتعة الجسم في شبابها. كان شابا... ما يزال شابا... منذ أطلت روعة أصبح غيره كان هو في ليله غيره في نهاره. كلامه العذب في النهار غير جفائه الموحش بالليل... سعيد بي على نحو ما أنا سعيدة به.

سألت إحدى التلميذات عن مفهوم كلمة حوشية في بيت شعر ورد في نص أدبي. حاولت أن تستجيب ذاكرتها للمفهوم اللغوي. امتنعت الذاكرة أن تستجيب :

- حينما تعودين إلى منزلك راجعي المنجد (فكرت قليلا فيما قد يبدو منها عجزا... أضافت) أفضل لكل تلميذة أن تعتمد على نفسها، خاصة في البحث عن مفهوم الكلمات. الكلمة لا تترسخ في العقل إذا لم تبحث عنها بنفسك. تبذل مجهودا لتمكن حاستك اللغوية من النمو. إذا أتتك سهلة يسيرة من إملاء الأستاذة سرعان ما يضيع منك مفهومها، خاصة إذا كانت غير متداولة.

- ويبقى تلخيصي للفصل الذي قرأناه في الدرس الماضي ناقصا إذا لم أتعرف على الكلمة.

وجدت هيفاء نفسها محرجة. فكرها ينقصه الصفاء في حاجة إلى ضياء يجلو عنه غشاوته، وهو غارق في مشكل اسمه النشوز. أجابت بكلمات خلصتها من إحراج التلميذة ليلى. أقفلت باب الأسئلة حتى لا تربكها التلميذات.

- شيء ما ينقصني هذا اليوم

- الضياء، صفاء الفكر والنفس والقلب و... الجسد...

- هو يوم من أيام. لا يختلف يومي عن أمسي، شهري عما استدبرته من شهور... غدي عن يومي؟

احتواها تفكير عميق - وقد عادت إلى المنزل تصحبها روعة... أعدت غداء الصغيرة تلح عليها أن تأكل لتعود سريعا إلى المدرسة.

خلت إلى نفسها في منزل تغمره الوحشة. تبدو جوانبه مظلمة. دخلت غرفة النوم تبحث عن مكان يحوى جسدها في لحظة نوم.

- في وضح النهار ودون غداء.

- سأكون معه على الغذاء حينما يعود.

فكرت في رعب :

لو تحول النشوز إلى هجران. قد تتضاعف الكارثة.

- لم النشوز؟ لم الهجران؟

قالت سمراء في حديثها المستند إلى خبرة عرفها مكتبها كمحامية، عرفتها في جلسات قاضي الأسرة، وهي ترافع في قضايا مماثلة :

- يحدث أن يكون في الزوج عيب جنسي يتستر عليه في معظم أحواله. والحل...؟ أجانب المحكمة :

- للزوجة أن تطلب الطلاق، إذا كانت متضررة من عطب في الزوج لا يرجى منه شفاء.

- أي حل هذا يهدف إلى تدمير العائلة (تحدثت هيفاء إلى نفسها).

- والحل الثاني أن تتحمل الزوجة، فللعلاقات الزوجية أجل محدود، إذا استطاعت أن تتحمل. وأن تبقى بدون عقب، أو تكتفي بما أنجبت إذا كانت قد أنجبت من قبل.

- حل يدمر نفسية المرأة قبل رغباتها الإنسانية، المرأة إنسانة خلقت لتعيش، لا لتدفن كل غرائزها البشرية في عجز الرجل

الجنسي، لا. محمود ليس عاجزا، رجل مكتمل (هتفت في سرها من أعماقها). أنا...؟ أنا امرأة إنسانة لي طموحي البشري كأي امرأة في مثل سني...

طافت بها الذاكرة إلى ما قبل شهور: ليلة من ليالي الاستجابة. عمقت بها الذاكرة إلى سنتيها الأولى مع محمود، وقبل أن تتوقف لياليها السعيدة...

- العجز قد يحدث في الطريق.

تحدثت الأفكار المتلاطمة في وسواس عميق.

- العيب قد يكون في الزوجة. إذا كانت غير قادرة على أن تستجيب جنسيا لتطلعات الزوج (أضاف القاضي فيما تروي سمراء، وكأنه وقع على سر المشكل) وفي هذه الحالة يمكن أن يعرضها الزوج على طبيب اختصاصي في أمراض النساء، أو على طبيب نفساني أو... يتزوج أخرى... أو يطلقها...

ضحكت هيفاء ضحكة مرة، وهي تتذكر رواية سمراء عن القاضي.

- دائما المرأة : تطلب الطلاق، أو تصبر لقدرها فسنوات الرغبة محدودة لديها، وعليها أن تكبت كل أحاسيسها أثناء السنوات المحدودة. والعيب قد يكون فيها، وعليها أن تعرض نفسها على طبيب أو طبيب...

مالي أذهب بعيدا الشرع يعاقب المرأة الناشزة. - لست ناشزة - فيما تروي سمراء عن معلوماتها، سيدة ملمة بكثير من الآيات والمعلومات. عقل محيط، منذ كانت صغيرة في المدرسة الابتدائية، دراسة القانون أفادتها... كثيرا... لا تتحدث في موضوع إلا كانت ملمة بتفاصيله... الناشزة تعاقب. ليست مذنبة. عليها الطاعة، وعلى زوجها النصيحة - ألست أنا ضحية؟ - أن يعظها ويهجرها في المضجع ويضربها إلى أن تطيع. المرأة لا حق لها في ذلك - قالت سمراء - إذا كان لها الحق، هل تمارسه؟ هل تستطيع؟ هل يسمح قلبها بممارسته على شريك حياتها. كثيرون يمارسون هذا العقاب على شريكة حياتهم دون نشوز أو ذنب ارتكبته... محاكم الأسرة تحفل بملفات الصراع بين الأزواج : ما أدري لم الزواج إذا كان سيفضي إلى العقاب أو إلى محكمة القاضي؟

شعرت بأن فكرها ضاع في فضاء حافل بالسوء. تجتر... ثم تجتر. أحاط بكيانها وسواس عميق. لجأت إلى غرفة - نومها - لتركز فكرها في ظلام الغرفة، وقد أقفلت نوافذها من ضجة «النشوز» تضخمت الضجة ولم تنم، الوحدة والعزلة ومرارة العيش والظلام. لا هدوء. لا نوم مع كل هذه الضجة الفكرية... ما ظهر منها وما بطن.

بعد قليل سيعود محمود من أعمال إدارية مرهقة، لا يحتمل أن يراني معصوبة الرأس منتفخة العينين كأنني كنت أبكي، سيشفق مرتاعا من مظاهر مرض أو إرهاق، سيتلطف بكلمات معسولة، يلح لمعرفة الأسباب، سأجيب - ساخرة - : إني حامل... سيضحك من أعماقه... نكتة سعيدة... سيجيب بسخرية واضحة... لن أعترف لن يعرف، سيقترح زيارة طبيب. قد يقترح دواء مهدئا، قد يقترح أن نمر بالسيارة على باب المدرسة. تكون روعة سعيدة لأننا حضرنا، معا، لاستقبالها على باب المدرسة، سيقترح أن نذهب إلى الحديقة أو مقهى النادي، أو نتجول في الشارع العمومي... تفكيره قاصر في معالجة الأمراض. لا يتخطى علاج الأطفال. بمهدئ مؤقت ظاهري،

لا ينفذ إلى العمق، هل أصبح من الضروري أن أضعه أمام الحقيقة؟ أي دوامة من الأفكار أضعه فيها لو أفصحت.؟

- مرهقة تعبة أنا. مريضة.. أنت مرضى...

سيستهين بالأمر، سيضحك، ساخرا، عابثا، مستهينا... لن يعتذر... لن يفكر معي في الظلم الذي يلحقني منه.

- النساء شبقات، شهوانيات...

قد يلطمني بكلمات من هذا الوزن الثقيل أستطيع أن أقاوم، الرجال قوامون على النساء... ترى كيف يفسر علماء القرآن هذه الآية..؟ الذين ينصبون أنفسهم لفهمها وتفسيرها يتطاولون ولا يفهمون عمق الآية. كما لعلهم يتطاولون على آية النشوز حينما يتعلق الأمر بالمرأة.

- تلك مشكلة آدم وحواء منذ هبطا من الجنة. لعلها كانت مشكلتهما قبل أن تعرفهما دنيانا. هل كان ناشزا؟ أكانت ناشزة...؟ سمراء نفسها ما أظنها تستطيع أن تجيب. أجيب أنا لعلهما عالجا مشكلتهما - أو مشكلة أحدهما - بقانون الحياة.

هي وحدها مصدر القانون أنذاك... ويحي... أفكر في الماضي البعيد، البعيد جدا، لأني عاجزة عن حل مشكلة الحاضرة.

- لا لن أفضح، سأخلص من الظلام الذي يلقى في هذه الغرفة، ولم يخفف متاعبي. سأضخ جسمي برشائق ماء دافىء، سأنسق شعري، وأزين وجهي، وأطبع على شفتي ابتسامة طامحة بالبشر. أجلب السعادة بنفسي لنفسي هل أستطيع ؟
- لا. إستقبله كما لو كان أول استقبال لزوجي العزيز.

يسر بذلك، يستقبلني هو الآن بابتسامات حافلات، قلب أبيض، طهور، مجامل. قد تهفو نفسه - وروعة ثالثنا... فيوزع قبلاته بيننا. قد تكون تلك فاتحة شهية لما بعد سهرة المساء...

- لا... لا أحلم... الحلم ليلة ربيع مزهر غيث من سماء، يحقق أملا حالما. ما سأفعل. سأخرج من مرحلة الاستسلام، واجترار الألم وحيدة حتى النمالة.

- ولكنه... ولكنه ماذا؟ قد يكون... قد يكون ماذا...؟ يتصرف لا إراديا... منهك بالعمل... لا... لا... لا أفكر بالسوء،

استقامته تبهرني، رصيدي منه، ومع ذلك فأنا مظلومة... مغبونة... شبابي... مشاعري... إحساساتي... لم أكن زوجة للمطبخ... لست سيدة للعمل المدرسي... أنا امرأة... أنا امرأة...

انفجرت شهقاتها باكية... أفرغت في دموعها كل شقائها. تسللت إلى الحمام عارية.

... من كل شجن. أمام المرآة تراقب بعيون متفتحة على مشاعر مزهرة تغازل عيناها، الجسم الذي ينام، وحيدا... تفتح فوهات رشاش يطفي بمائه الدافئ غلة جسم أضناه الشوق إلى الآخر.

- 5 -

توقفت سيارتها في اللحظة التي توقفت قدماه على بوابة المدرسة، استقبلها في ابتسامة طافحة بالبشر، ود شيطان نفسها أن لو تحولت الإبتسامة إلى قبلة...

- لا... لا يجوز أنتما في مكان عمومي باب مدرسة، القبلات للأطفال والطفلات، تحلمين كطفلة...؟

وجد أنفسهما، كما لو كانا على موعد لانتظار خروج روعة من المدرسة. جاء راجلا من إدارة عمله - قرية من المدرسة - جاءت بسيارتها سعيدة أن تستقبل الطفلة عند خروجها من المدرسة.. كم تكون سعيدة حينما تسمع في حبور صوت الطفلة:

- ماما... بابا... ماما... بابا...

تجري نحوهما كأنما تنطلق من سجن مدرسة، وجهها حافل بسعادة البشرى. ابتسامة طفلية رائعة على وجه روعة. فتح محمود ذراعيه فتقبلها. وردة فواحة بعطر الطفولة. رفعها بين ذراعيه، أمطر خديها قبلات شوق كما لو لم يكن رآها قبل شهر تبادله قبلة بأخرى، تهتف بابا... بابا... هيفاء، وذراعاها متفتحتان في انتظار دورها لاحتضان روعة :

- يا محمود.. أترك لي بعض القبلات..

تراه فهمني، أو تغافل...؟

- إلى أن أشبع من حبيبتي، لم أراها منذ الصباح. كانت معك ظهرا.

- مع ذلك أنا في شوق دائم...

في السيارة، أخذت هيفاء المقود ومحمود بجانبها، يحضن روعة على ركبتيه...

- حدثيني ماذا قرأت في المدرسة؟

قالت هيفاء : تلميذة نجيبة منضبطة. قالت الأستاذة، أليس كذلك يا روعة.

- أي نعم يا أمي (قالتها بالفرنسية فهي خارجة من مدرسة تتحدث فيها المعلمة بالفرنسية) فرح محمود وهي تلثغ بالفرنسية، اعترضت هيفاء، قولي بالعربية نعم يا ماما، نعم يا بابا.

- المعلمة قالت لنا كلمة أخرى حفظتها كما قالتها.

- الله يرضي عليك يا غزالتي. أعيدي الكلمة كما قالت لك المعلمة أو كما قالت ماما. أنت مرتاحة في المدرسة.

- نعم يا بابا معي طفلات صغيرات جميلات. كلهن صديقاتي.

- وماذا علمتكن المدرسة اليوم...؟

- لا شيء... غنينا... ولعبنا وكتبنا في الورقة بالقلم كلمة «روعة»...

سعد محمود بأن ابنته بدأت تتعلم، واكتسبت صديقات تسابقهن في مراح المدرسة.

كانت مائدة الغداء مجهزة كأنما تنتظر ضيوفا.

- لم تتغذى بعد؟

قالت هيفاء في ذلال :

- وهل يطيب لي غداء بدونك يا حماد...؟

- شكرا... (قالها وهو يتفحص وجهها في نظرة حافلة بالشوق) ولكني لا أحب أن تصومي شهر رجب... هذا العمل المستمر يحرمنا من جلسة الظهر على مائدة الغداء. وما أحب لك أن تظلي جائعة في انتظار إفطار في غير رمضان.

- الصيام... نألفه كما نألف الحرمان من كل شيء عزيز علينا، لذيذ لنا... أنت تصوم عن كل ملذات الحياة، فلم لا أصوم معك...؟

- التضامن الزوجي هو؟

ساد بينهما صمت كانت فرصة لهيفاء تفكر في جواب مقنع، غير مؤذي، ولكن يحمل رسالة...

- مقبول أن يصوم الزوج الفرض، وغير مقبول شرعا أن يصوم الدهر... نحن في عصر العمل والإنتاج. الصيام يدمر طاقة الإنسان، يحيل شبابه إلى شيخوخة ظالمة.

يشعر محمود بأنها تلغز فليس من طبيعتها أن تتحدث عن الصيام، وهما على مائدة حافلة بشهي المغذيات.

- ظالمة...؟ ظالمة ممن؟ هناك شباب منصف وشيخوخة ظالمة...؟

- بدون شك... إذا عرضت لشاب في عز شبابه.

- أو لشابة في عز شبابها.

- الشريعة تعاقبها...

ومن المؤسف أنها تسكت عن عقابه.

أخذت لهجة محمود طابعا حادا فيه قليل من الصراحة:

- الكلام الذي أصبح تكراره موضة عند الجنس اللطيف: المرأة مظلومة، المرأة تتحمل العقوبات، الرجل ظالم.. حتى الشريعة تتحيز للرجل ضد المرأة، أسمعت بالقانون الذي صدر في بعض البلاد العربية...؟

- الجرائد رسمية في كل البلاد عربية وغربية، وما نحن بمطالبين أن نطلع على جميعها.

- ولكني مطالب بأن اعترف لك (صمت) مفتخرا بأن هذا الأكل لذيذ والغداء منوع تستحقين عليه شكرا وثناء واعترافا بالجميل...

- أهذا كل ما أستحق...!

- تستحقين كل خير يا عزيزتي. أهناك خير أكثر من أني أهديتك «روعة».

ضحكت هيفاء من أعماقها، وقد كان كأس الماء بين شفتيها، فتطاير رشاش منه تلقتها بمنديلها.

- هي هديتي إليك... أم هديتك؟

- نصفها الحلو هديتي (سكت قليلا أسمر) ونصف الآخر الأحلى هديتك.

- وأشكر لك شيئا آخر أن تحولت ابتسامتك العذبة إلى ضحكة عارمة.

- لكل حركة في الكون سبب فيزيائي. وسبب ضحكي قولتك...

- قولتي ماذا قلت مما يبعث على الضحك...

اتسعت ابتسامتها العذبة وهي تقرص شفتي محمود مداعبة في دلال :

- قلت يا عزيز حماد : أنك أهديتني روعة... أحكي لك حكاية: شاعرة بسيطة في الجاهلية عيرها بعض الرجال، كما كانت عادة ذلك الزمان بأنها تلد البنات. فأجابت بيت شعر قالت فيه : لا نعطي إلا ما أعطينا... كان ذلك أيام زمان. أما الآن فإن حقوق الإنسان تعترف للمرأة بأنها تعطي، ولا يعطى لها. وكم أحب أن تذكر أن روعة من إنتاج زوجتك.

ضحك مبتهجا من قولها، يحاول أن يلطف الجو الذي شعر بأن غيمة توتر خيمت عليها وأجاب :

- من لا يعترف لسيدة فاتنة مثلك بأنها منحتني أروع روعة في دنيانا. مهما يكن فمبادئ علم الاقتصاد تتحدث عن الإنتاج المشترك. أتنكر المرأة مبدأ الإنتاج المشترك؟

- إذا لم ينشز رأس مال أحد الشريكين...

- أغمضت علي القول بالشعر العربي والكلمات العربية الغامضة. الاقتصاد الحديث لم يعرف كلمة «ينشز». هل لك أن توضحيها بكلمة من لهجتنا المغربية أو بكلمة موازية فرنسية.

- سيأتي وقت ذلك، (أرجو ألا نضطر لتوضيح الواضحات). أما الآن فنحن على مائدة غذاء طيب ولذيذ تأكد أنني سعيدة حيثما تعترف لزوجتك الحبيبة بأنها قدمت لك وجبة غداء طيبة ولذيذة، كما تعترف بأنها أهدتك روعة كوردة من وردات الجنة.

كانت روعة تتحرك حول مائدة الغداء كنحلة مرنان تقفز بين هذا الطابق وذاك. تأكل ما يحلولها من أكل وفاكهة تردد في همس ما حفظت من غناء في المدرسة بالفرنسية، تعيش عالمها الغني بالأحلام والذكريات الحديثة. لا أسعد من أبويها يراقبان نشاطها وحيويتها، وخلو أحاسيسها من أية عقدة، وصفاء ذهنها المتفتح.

انتهى محمود من غدائه، هيفاء ترتب قاعة الأكل. قال وهو يطرد جفاء الصمت بعد حديث لم يخل من جدل اعتبره طريفا :

- ما تزال الدخينة تراودني بعد الغداء، ولكني عند قراري، وقرارك منذ اليوم العالمي ضد التدخين. أتعرف أنك أنقذت.. روعاء نفسها من أن تستنشق دخانك.

- أتعرفين أن هذه الحقيقة كانت باعثا لي على التصميم الأبدي. (فرفع صوته مباهيا في تعابث!) لا تدخين بعد اليوم.

خلا لنفسه مع صحفه. خلت لنفسها مع تحضير دروسها وتصحيح أوراق التلميذات. قطع الصمت بينهما فهو لا يطيق الصمت حينما تكون هيفاء قريبة منه.

- تلاحظين يا هيفاء أني لا أقتني الصحف السياسية. لقد كرهت سياسة الهذيان والنميمة. بعض الصحف والمجلات الاقتصادية الجادة هي زادي في ثقافتي، وفي ممارسة عملي.

- تطلعك إلى الصحف والمجلات يجعلك أقرب إلى واقعية الحياة، أما أنا بقدر ما ابتعدت عن الحياة اقتربت من الكتب. الكتاب بحر حافل ثائر الموج في كثير من الأحيان. كلاهما يسعدان إلى حياتي الواقعية. ويمعناني بالأحلام والآمال، يبعداني عن الجسد، أحيانا إلى الملكوت. ما أحب الملكوت إلى النفس المكلومة والقلب الجريح...

بدأت أميل إلى التصوف وكتب الصوفية. بدأ يحلو لي أن أغرق في الفكر لأصبح فيلسوفة، أو إلى التصوف لأصبح زاهدة في الحياة. الراهبات لهن عذر في الانصراف عن الدنيا،

والارتباط بالملكوت. الصوفية نوع من الرهبنة. حينما يرتبطون بالله، لا يبقى من دنيا الناس في قلوبهم إلا الأشباح.

- النساء في علمي لا يتصوفن...

- ألم تسمع عن رابعة العدوية... في علمي أن المرأة المقهورة المظلومة، المغصوب حقها، إما أن تتصوف أو تخرج عن الطريق المستقيم، أيهما تفضل؟

- يا هيفاء، أصبحت تعومين في بحر من التشاؤم.

- فتش عن الرجل... على غرار ما يقولون : فتش عن المرأة... تريد وضوحا أكثر : لو أنصف الزوج زوجته لما ربى بها في محيط التشاؤم.

- النقاش بين الرجل والمرأة (قال في لهجة متوترة) ينتهي دائما إلى آدم وحواء...

- رحمه الله. أنصف حواء فلم يغصب شبابها، ولم يقهر أحاسيسها فكانت نعم المرأة الفاضلة مريحة ومستريحة.

بدأ محمود يحتد. غير أنه لم يكن يقف في منتصف الطريق إلا حينما يساوره الظن بأنه سيغلب، فيحاول أن يرضي منافسه في القول :

- علمتك الكتب كثيرا من القول. حتى طريق التصوف أو الرهبنة من توجيهات الكتب فيما أعتقد.

- كل إناء بما فيه يرشح. والكتاب يجلو كلمة الحق حتى لا تبتئس النفس ويظلم القلب وحتى يستريح الضمير.

قد يكون الكتاب علمني أن أفصح. بذلك هداني إلى فضاء أتنفس فيه هواء نظيفا. أنا - يا محمود، لا أتحمل القهر بطبعي، وحينما اجتمع مع زميلات سعيدات يزيد إيماني بحقي في السعادة.

- أو لست سعيدة بروعة؟

-أخشى عليها مستقبل أمها. كم هي بريئة متفتحة للحياة. لو استطعت أن أتركها طفلة، تلعب وتتلهى بأبسط طيبات الحياة، لا تتحمل مسؤولية الجسد، لفعلت. حينما أفكر في مستقبلها لا

أنام، قالت أمي - والحكمة من أفواه المجراب - لا تراعي... كل طفل أو طفلة يصنع ونصنع مستقبلها. أضافت والألم يعصر قلبها : تخاطبني : مستقبل «روعة» سيكون أجمل بهاء من مستقبلك، ومستقبل ابنتها سيكون أروع من مستقبلها.

- ولكن حاضري - يا أمي - لم يكن أكثر بهاء مما استعلمت من حياتك.

أجابت والأمل يغمر أساها :

- أنت بنت تحبين الله، وتعبدينه بنظافتك وتحملك، والله يحبك، وهو معك (أضافت السيدة التي لا تترك الصلاة وتفكر في الله في ساعات الليل المدلهم)

- افتحي نفسك للحياة. اقرئي واقرئي، الكتاب يملأ قلبك بسعادة العقل ستنسيك سعادة الجسد.

- أمك أصبحت حكيمة مرشدة.

- كلامها هو ما تقوله المتصوفات في الإسلام، والراهبات في المسيحية.

- أتهديك (في كلمة عاتبة ساخرة) متصوفة أم راهبة؟

- وما تريد (أنت أن تجعل مني...؟ أنت تعبد لي طريقا أسير عليها.

- يقولون إن المرأة ضيعة الرجل. وأنا لا أحبذ لك طريق التصوف أو الرهبنة : فأنا رجل عادي في ثقافتي وعملي، أبحث عن المستقبل المنتج. التنمية سر حياة المستقبل، التصوف والرهينة جمود وتوقف تعاكسان الحياة، ومسيرتها وما أحب لزوجتي أن تسير في طريق معاكسة لمسيرتي.

- وتحب لها أن تعيش معذبة محرومة ؟

- ليس من طبعي أن أظلم أو أعذب أو أحرم أعز الناس إلي.

- ومن ممارساتك معي، لا ترم بنفسك في جب من الغفلة، حق المرأة يتجاوز الكلمات المعسولة، والتعامل عما هو في حاجة إلى صبيب، - قالت إحدى الزميلات في مجمعنا الحافل بالأفكار النيرة - نفسي أو جسدي...

- المرضى كلهم في حاجة إلى أطباء.

- كثير من المرضى لا يشعرون أو لا يحبون أن يعترفوا بمرضهم. وقد يكون ما يهم مرض الشيخوخة، وهم لا يشعرون.

ضحك محمود ضحكة حافلة بالابتهاج والسخرية معا وهو يجيب :

- إن تعجب فعجب من شابة في ازهر العمر تفكر في الشيخوخة. أنت يا هيفاء تصنعين في المدرسة جيل...

اقتطفت الكلمة من فمه مقاطعة :

- من حقي أن أنعم بشبابي لأمنح للجيل الذي بين يدي شبابا حافلا بالحياة.

وفتح محمود جهاز التلفاز على نشرة الأخبار. ساد بينهما صمت إلا من الصوت الناعم المليء بالحياة الذي يخبر عن مشاكل العالم وكوارث الدنيا، وما انتهت المذيعة من نشرة الأخبار حتى نهض محمود واقفا :

- آن لنا أن ننام، الصباح يطاردنا، ومدرسة روعة تلاحقنا.

ونهضت هيفاء في تثاقل كأنما تساق إلى فراش من جحيم.

على شعاع ضوء خافت أخذ محمود - وهو يسند ظهره بمخدة لينة العريكة - يتحدث عن مشاكل التنمية في عمق الأزمة العالمية، أطال الحديث في فضاء من السأم. انتهى أخيرا من حديث بارد. أطفأ المصباح وأدار وجهه لجدار الغرفة.

أدارت هيفاء وجهها إلى فضاء الغرفة، أطار الظلام وبؤس الغرفة النوم من عينها، ضغط على أعصابها واقع قاتم فانفجرت باكية في شهقات خانقة.

- رفع محمود الغطاء عن رأسه، لم تمتد يده إلى مفتاح النور، في صوت هامس :

- هيفاء أتبكين..؟

استمرت شهقاتها وهو يردد السؤال وأجابت بصوت دام :

- أي نعم أبكي... أبكي، إذا لم أبك لا أنام...

- 6 -

... كنت تبكين ليلة أمس يا هيفاء. أيقظني شهيقك في منتصف الليل، انزعجت. تأكدت أنك تبكين، وأنت نائمة. اشفقت، فلم أشأ أن أوقظك...

- مسكين - شكرا - أنك تركتني لشهيقي أبلل قلبي بدموعي...!

- ولم تبكين يا هيفاء؟

كانا يقضان عشية يوم سبت- يوم عطلة عن العمل - في مقهى بسيط يتوسط حديقة حافلة بأشجار الأرز المخضرة، والسابان والكالبتوس يسيج بركتها الجميلة نخلات قصيرة

مترامية أغصانها في الهواء الطلق. تسبح في مياه بركة بركات صغيرة تقرقر بلحن موسيقى كأنها تحتفل بعيد.

لم تكن روعة حاضرة. استضافتها جدتها يوم عطلتها المدرسية، جمال الطبيعة وبهاء طقس الربيع واندياح مياه البركة تحت لمعان حمراء من شمس تميل نحو الغروب.

- جلسة جميلة هذه تنقصها روعة، قالت هيفاء بصوت مكلوم، في غير حماس.

- نعيدها غدا إذا راقتك الحديقة (صمت) ما أزال أطلب جوابا.

- جوابا...؟ (صمت - نظرات متسائلة في تبرم) جوابا عماذا؟

- سألتك! كنت تبكين ليلة أمس. لم تبكين...؟

واستمر الصمت الموحش يجلل ما بينها برود موحش.

- ماذا يا هيفاء، أنسيت اللغة وأنت أستاذتها...؟

- المرأة الجريحة لا تنسى ولو شغلت بالدرس أو ترتيب البيت أو جمال الطبيعة. أتعرف قصة الأسد الذي عيرته إمرأة بربرية بأن رائحة فمه كريهة. ظلت الكلمة النابية جرحا في قلبه، رغم اعتزازه بسطوته وسيادته على الغابة. المرأة الجريحة يطمرها الحزن في قبر الأحزان، رغم شجاعتها وقوتها وإمكانياتها للمعاملة بالمثل.

أصيب محمود بلحظة ذهول، يفكر دون أن ينبس :

- هيفاء جريحة مطمورة في قبر الأحزان... تبكي، وهي نائمة، لم ينزع عنها كابوس الآلام الحزينة حتى طقس هذه الحديقة الحافلة برائع البهجة وفواح الأزهار والورود.

- هيفاء. مكلومة جريحة حزينة متألمة... كل كلمات البؤس والحرمان صبت في حديثك اليوم.

- اليوم... كل يوم يا محمود. أبكي كل ليلة يا محمود... تتردد الكلمات.. التي سميتها بئيسة، في ضميري، على لساني

كل يوم، تسمع مني كل يوم، تتغافل. ربما نومك العميق يريحك من أن تسمع شهيقي كل ليلة.

- ولم البكاء والألم والحزن يا هيفاء؟ نستشير طبيبا إذا ألم بجسمك عياء أو مرض يا هيفاء. لا تهملي نفسك. بعض الأمراض تتطور وتتضاعف إذا أهملت في بدايتها، الدكتور راضي طبيب جيد. وعنده ملف مسجل في الكومبيوتر عن كل منا. يحسن أن نمر به، ولو في طريق عودتنا عيادته مفتوحة إلى ما بعد السادسة.

... يا سيدي الفاضل - لأول مرة تخاطبه بهذه اللهجة - من قال لك إن جسمي مريض. إذا كان أحد منا مريضا فليس أنا. ومع ذلك إذا كان بي مرض فليس بجسمي. أنا جريحة القلب والنفس. طعينة إنسانيتي. المرأة يا محمود لا تبكي من جرح في جسدها أو ألم في أعضائها. ولكنها تبكي من طعنة في قلبها.

كاد يتحول ذهوله إلى إغماء اضطراب فكري ألم به. اضطربت الكلمات بين شفتيه :

- اعتذر يا هيفاء. أغمضت في القول. تمتنعين عن زيارة الطبيب، لا تشتكين من عارض مرضي، وأنت مع ذلك كما قلت واظبت في القول. لقد غم علي، وبودي لو تفتحت نفسك لمباهج الحياة حتى لا تقعين في حالة ابتئاس. ليس من مصلحتك، ولا من مصلحتي روعة ولا من مصلحتي ذلك.

- محمود. افتح منافذ فكرك، تفتح على كل أوضاعنا العائلية. فكر جيدا... (صمت) جيدا جدا في مستقبل روعة... مستقبل الطفلة البريئة هو الذي يبكيني، هو الجرح الذي يطعن قلبي. أنت... أنت أنت رب العائلة أب لروعة، تزعم أنك تحبها، لا يهمك منها إلا أن تلاعبها كدمية، أو تنتقل قافزة أمامك من مكان إلى مكان كنحلة يسليك أزيزها، ثم هي طفلة في البيت، تأكل الطعام، وتتردد على المدرسة... الرجل الذي لا يفتح منافذ تفكيره وأحاسيسه، على عش حياته، على ممارساته وسلوكه وتصرفاته، يهدم عشه من حيث لا يشعر، يقضي متعمدا على مستقبل ابنته الوحيدة، والتي لن تكون لها أخت ولا أخ، كنت آمل لو أعفيتني من الحديث المر، ولكن بعض الناس لا يعرفون المر إلا إذا لسعت أذواقهم مرارته.

فاضت دموع هيفاء. تملكتها نوبة الشهيق، تكتم أنفاسها بمنديل بين يديها، لم يعد محمود يتبين من خلال شفتيها إلا كلمة : روعة... روعة...

تمالك محمود نفسه، والشجن يطفو على كيانه. لم يحتمل أن تبكي هيفاء، ولا هو متحمل أن يراها مغمورة النفس بالحزن والأسى، ثارت لواعج حبه لزوجته، احترق قلبه واسم روعة يقترن بالشهيق. أخذت دموعه تزور عينيه. تذكر: «الرجل لا يبكي»... هيفاء... روعة... تجمع كل حبة وهامة في الكلمتين. كاد يصيح. استجار بصبره. خانته الكلمة حرك يديه، أصابعه، يبحث في جيبه عن شيء ظن أنه يبحث عن رقم هاتف حواء فهي الطبيبة... الكلمة التي استطاعت أن تتمرد على شفتيه المصلوبتين، عاد فكره يتحرك :

- اليوم عطلة. آخر المساء وطبيب يمكن أن نجده في عيادته لا سبيل لتهدئة أعصابها. لم تكن هيفاء قط في وضع مزعج كالذي وضعت نفسها تحبه وهي تضغط على أعصابها. لم تقترن روعة في حديثها قط، بالمخاوف كالتي تتفجر من بين شفتيها، ماذا

حدث؟ هل تستطيع أن تجيب؟ أي سبيل أسلك لأتعرف على ما يرج كيانها، عاد إليه بعض وعيه :

- هيفاء... هيفاء... تحدثي... قولي.. ماذا حدث لروعة...؟ ما بك يا هيفاء.

أزمة نفسية جارفة تمر بها هيفاء - قال لنفسه -. أرجوك، أتوسل إليك، أنا زوجك.. لمن تشتكين إذا لم تبثي لي أحزانك.

أخذت نفسها تهدأ، كف شهيقها. رفعت كأس ماء إلى فمها عبت منه حتى الثمالة. تماسكت أعصابها وهي تمسح العرق من جبينيها، فتحت عينيها على أبعادهما تحاصرهما شجرة سامقة كانت في ملتقى نظراتها، كلمات محمود وردت إلى أذنيها كأصداء بعيدة لصوت جريح، عاد إليه الأمل في أن يتحدث.

- محمود. آن وقت المكاشفة. أتحب روعة؟ لا تجب، متأكدة أتا... حافظ على كيان مستقبلها حتى تكبر لأبوين. لم أجرأ على أن أجعلها ضائعة بين رجل وامرأة لم تعد تجمعهما علاقة أبوة وأمومة...

- هيفاء هيفاء... ماذا تقولين؟

- أسكتت يا محمود. الكلمة لي ولا أقبل أن تقاطعني. أنا سيدة نفسي الآن... أفهمت...؟

كلماتها كانت صارمة، توقف فكره عن الحركة توقفت كلماته عن الحياة، وجد نفسه كطفل في مدرسة أمام أستاذة صارمة : استمرت :

- ... محمود أعرف ما أقول : إذا ظلت علاقتك بي كما هي، فما أنا بصالحة زوجة لك، وما أنت بصالح زوجا لي، صبرت، قررت أن أهجر كل مشاعري وإحساساتي، لكني امرأة، لا أرضى لنفسي أن أخونك، لا أرضى لنفسي أن أشك في استقامتك. لم أعد أحتمل النشوز والهجران، دفعتني - مشكورا - أن أبوح، كنت مصممة على ألا أبوح بأسراري. أسراري التي أعانيها وحدي، تفجر هموما، تتفجر دموعا، تلجأ بي إلى التحمل. أنا امرأة قدرتي على التحمل لها حدود، قوتي على الصبر لا تحملها امرأة، استشرت في صورة مغلفة، لا أرضى أن يعرف عني، وأن يعرف عنك، عرضت المشكلة على مجمعنا النسائي برواية عن

امرأة - أم تلميذة مجهولة - استشارتني كانت كل الآراء - وكل صاحباتها من ذوي الخبرة القانونية والاجتماعية، كانت معي ضدك...

... ضدي... كل عضوات المجمع ضدي؟

- قلت لك الكلمة لي: ولست حمقاء، أو عديمة الأصل حتى أجعل اسم زوجي تلوكه الألسنة. القصة كما ناقشها المجتمع تتعلق بسيدة لا أعرفها - أجهل شكلها واسمها وجنسيتها، المجمع ناقش المشكلة، وليس الشخص، ناقش نشوز الرجل، كما يعرف الرجال نشوز النساء، ويشتكون منه ويلجأون إلى عقاب زوجاتهم.

احتدت أعصاب هيفاء وهي تتحلى بشجاعة القول. كما سكت محمود حتى تبلغ الرسالة دون انفجار :

- ... أنت يا محمود ناشز. تهجر زوجتك، تعيش معها كما لو كنت غنيا عنها. لولا ثقتي في أخلاقك لظننت بك السوء، ولأصبحت روعة ضائعة بين أم زوجة لغير أبيها، وأب غير

ذي شخصية الأب. الفضل لك يا روعة. لم تنقذي نفسك من مستقبل الشقاء. أنقذت - لعلك قد تنقدين - عائلة من تدمير العلاقة بين زوجة فاضلة شريفة - أقولها بكل اعتزاز، وبين أب يهجر فراش أمك.

- وماذا قال المجمع وهو يطلع على أسرار فراشنا...؟

- قلت لك يا محمود وأكرر - لا أحتاج إلى ذلك - أن المجمع درس المشكلة الاجتماعية بعيدا عن الأشخاص أو أسرار الناس. كن - صديقاتي في المجمع - باحثات مستقيمات الفكر والرأي. إذا كانت إحداهن لم تستبعد مقولة : «إن النساء شقيقات الرجال في الأحكام»، فإن الأوفر حظا من الفكر الاجتماعي أشارت بالطبيب النفسي أو الجسمي.

- ماذا تعني التي أشارت بأن النساء شقيقات الرجال؟

- القضية معقدة، ولكن لا بأس أن تعرف أنانية الرجل تبعد به أحيانا عن المعرفة.

- لست أنا يا هيفاء...

- أبدا... أبدا... ولكنك أنت، ولا أحد غيرك ولو.... أنا في لحظة البوح، ولذلك أقول، لا أريد أن أزيغ عن القول: الآية القرآنية تقول : «واللتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا....» وهاته : النساء شقائق الرجال نقول : إن الحق الذي يملكه الرجل على المرأة الناشزة تملكه المرأة على الرجل الناشز، أتعرف ماذا تعني كلمة الرجل الناشز...؟

- لست خبيرا في علوم القرآن.

- القضية تدخل في الفقه الاجتماعي، وليس في علوم القرآن. الرجل الناشز هو الذي يهجر زوجته في فراشهما، أتريد أن أطبق عليك الآية القرآنية. لا أحد من المسلمين يفر من تطبيق القرآن.

ولكن لا... لأني المرأة التي تعتز بعشها الزوجي أي لم يكن ذلك لنفسها فلطفليها. اعتبرني إذن في مرحلة الوعظ - الآن.

- وماذا تريدين مني يا هيفاء. فما فكرت فيه السيدات العالمات الفقيهات.

- أرجو أن تحترم صديقاتي المثقفات، فهن من خير من أنجبت هذه البلاد.

محمود. لا نظن أن الشبق ينطق بلساني، أنا شابة نظيفة متعلمة. قبل كل ذلك أنا إنسانة، إنسانيتي لا تقبل أن تغتصب. كرامتي لا تسمح أن أكون امرأة على هامش سرير الزوجية. لي حق إنساني من واجبك كزوج محترم أن تدافع عنه. ليس أسهل على المرأة أن تهين الرجل فتعتزله ليصبح هو المطالب بالحق. وعند ذلك يقف القاضي وسيطا بينهما، وأنت تعرف مصير الزواج الذي يصبح بين يدي القاضي.

لحظة البوح دفعتني إلى أن أقول ما كان من حقي أن أقوله منذ البداية، لكني حرمت الجرأة التي تتمتع بها كثير من النساء، وصوت «ماما» يصدر عن الطفلة التي أعلق عليها كل أملي. وأضع مستقبلها أمانة في عنقي.. قد يكون كلامي مؤلما ولكن جرحي جعلني انطق بالذي سمعت. أنا لا أنصحك يا

محمود، وإن كان من عمق حقوقي وواجباتي ألا أفرغ مكاني من وجودك فأنصحك ساعة تجب النصيحة، كما أتقبلها ساعة يجب قبولها منك.

ما بعد هذا اليوم إلا قرار يصدر منك. أمنحك ساعة، ساعات للتفكير، وأنت الرجل صاحب القرار. إذا لم يكن في إمكانك أن تتخذه فسأتخذ قراري.

حملت هيفاء حقيبتها، بدأت خطواتها المتأنية وهو يدفع حساب مشروباتهما للنادل.

ساد صمت مطبق في طريقهما إلى المنزل: فكر محمود تحرك ولم يستقر. كل. أفكار الحيرة والتردد والاضطراب النفسي تلبست جسده وضميره - تناقض مدمر احتواه، لا يدري أيسير على قدميه أو على رأسه، ولكنه يسير بغير إرادة ولا وعي. لو لم تكن هيفاء تسوق به السيارة لضل الطريق، لو لم تكن تسير إلى جانبه لأخطأ المسيرة :

- أصبحت متهما في مرافعة لم يكن من حقي أن أجيب عنها بمرافعة مماثلة، صدر الحكم دون مداولة. ما أدري إذا كان من حقي أن أستأنف القرار، أو حكم نهائي بدون استئناف ولانقض.

أنت القاضي ستتخذ القرار، وهو طوع إرادتك، بعد ساعة أو ساعات (وضع ساعة يده أمام ناظريه لا إراديا).

هي التي ستتخذ القرار، إذا لم أقرر.

لست حزينا، أنا حر، أن أكون... أو لا أكون...؟ المرأة تدافع عن حقها في المتعة... حقها...؟ الشرع يقول... القانون يقول... شيء جديد في حقوق المرأة.

- لم لا يكون من حقها أن تدافع عن إنسانيتها، هي إنسان، لو كنت مكانها. ألم يكن من حقي أن أطالب بالطاعة. أن أطبق الآية الكريمة: الوعظ والهجران والضرب حتى الطاعة. وضع الرجل مكان المرأة في الآية غير موجود، وإلا... في المنزل تركته لمجلاته، انصرفت لكتبها، لأعمالها المدرسية.

الهدوء يسود المنزل إلا من حركات عابثة لاعبة و«ألحان» من غناء المدرسة وقفزات نحلية من «روعة» كاد يشعر بقلق يأتيه من الطفلة التي لا تحمل هما، ولا تفكر في توتر بين أمها ووالدها، لم يستطع أن ينهر الطفلة لتريح أعصابه، هو في حاجة إلى أعصاب هادئة باردة ليفكر. مطلوب منه أن يتخذ القرار بعد ساعة أو ساعات، تصرفت هيفاء كما لو كانت فريدة في المنزل، تصرف، تصرف ومليون فكرة وفكرة تلاحقه. قرأ ولم يفهم، عزف عن القراءة، راودت فكره الدخائن. بحث عن علبة قديمة واشغل النار في إحدى دخائنها. فتح شباك الغرفة فهي لا تطيق الدخان، جلست في غرفة الأكل مع كتاب استغرقها. لم تمنح نفسها فرصة التفكير في موضوع جلسة المحاكمة. قالت كلمتها ومشت. أفرجت عن العبء الذي كان يثقل كاهلها.

موعد نومها قد حل. وستنتقل إلى فراشها، وتترك له الكلمة. لن تقاطعه، لن تعاديه، لن تفتح الموضوع بكلمة منها، كانت مرتاحة الضمير. تخلصت من متاعبها، أفرجت عن همومها وضعت العبء على كاهله. الساعات انصرمت تعرف من طبعه أنه سيكون عند كلمتها. موعد قطعته له. سيكون حاضرا عند

الموعد. عليها أن تحضر الجلسة، دخلت غرفة نومها. غيرت ثيابها أخذت مكانها بجانبه في هدوء. أسندت ظهرها لمخدتها انتظار لكلمته دون أن تنبس. مرت الدقائق الأولى ثقيلة، تحسبها مريرة في نفسه. أقلقه صمتها. اعتبره تحدي... مرت دقائق أخرى أكثر مرارة :

- هيفاء مالك لا تتكلمين...

- فرضت قوة شخصيتها وشجاعتها:

- الكلمة لك... أنا الآن مستمعة. لم يحن بعد موعد كلامي. آمل ألا يحين.

- هيفاء، أنا الذي يتحدث. هيفاء واجهتني قبل ساعات باتهامات ظالمة ، أنا الآن أتحدث عن زوجتي لا عنك. فأنت مستمعة كما قلت. أعلن لغرفة الاتهام أني بريء. لا أعتذر، لأن البريء لا يعتذر عن ذنب. حق الزوجة مشروع ومقبول، ولا أفر من حق ومن واجب. أنا إنسان. كما أنها إنسان، إذا كان نفور بيننا فلكل منا مسؤوليته. وكما أعترف، فعليها أن تعترف

لنلتقي وسط الطريق. الإنكار من جانب، قد يقضي إلى الإنكار من الجانب الآخر. من حقي أن أشكو الظلم من زوجتي التي لا أطلب منها كلمة إغراء في ساعة الاستجابة. من حقي أن أطالبها أن تكون زوجة راغبة. ما بين الزوجة والزوج قدر مشترك تعطي فيأخذ، يعطي فتأخذ...

سكت لحظات طويلة. لم تنبس. كان ينتظر دفاعا، يعرف أنها لن تدافع، فقد قالت كلمتها، ولن تعيد أضاف :

-... حتى أختصر حديثي. أنت وأنا في غير حاجة إلى جدل عقيم، منذ الساعة آمل أن أحظى برغبة في أن أكون ناشرا آمل أن تطبع هذه الكلمة على شفتيك ابتسامتك الجميلة التي عودتني.

ظل مصباح النور ساهرا في الغرفة، لم يغمرها ظلام.